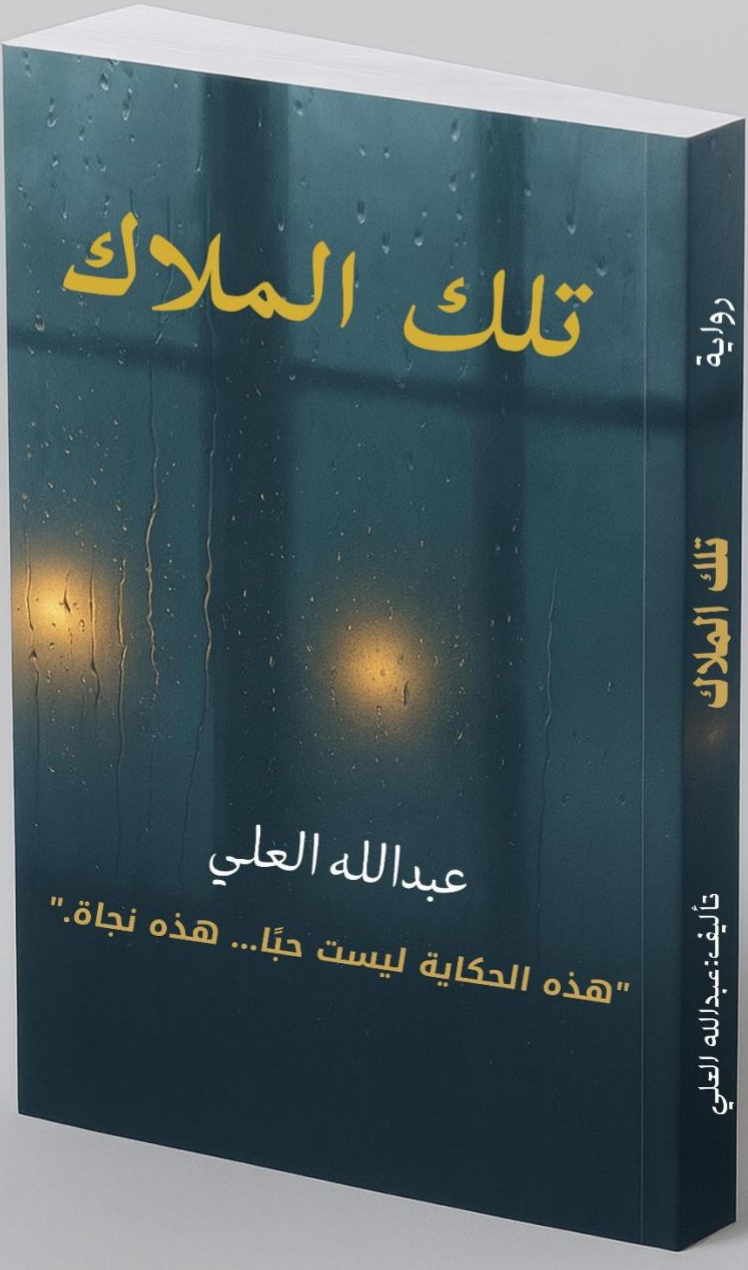
تلك الملاك
رواية
تلك الملاك
عبدالله العلي
"هذه الحكاية ليست حبًا... هذه نجاة."
تأليف:عبدالله العلي

مقدمة الكاتب

بقلم: عبدالله محمود العلي

أنا عبدالله محمود العلي، رجلٌ علّمه الوجع كيف يُمسك القلم كما يُمسك المريض بيده عند الألم.

عملتُ ممرضًا بين الأرواح التي تُصارع الفقد، ثم وقعتُ أنا في معركةٍ أخرى اسمها الحياة.

أكتبُ لأن الكتابة شفاء، ولأن في الكلمات طبًّا لا يُدرَّس.

ولأن بعض الحكايات لا تُروى في جلسةٍ واحدة، كتبت هذه الرواية كما تُكتب السيرة: بالدمع، والصدق، وشيءٍ من الرجاء.

لم أكتب " تلك الملاك " لأُبرّر ماضيًا، ولا لأرسم حبًا مثاليًا،

بل لأقول إنّ الطهر ما زال ممكنًا، حتى في زمنٍ امتلأ بالظنون.

هذه ليست قصةً عن بطلٍ أو بطلة، بل عن إنسانين التقيا صدفةً، فصارا درسًا في النقاء

مقدمة الكتاب والقصة

كلّ إنسانٍ فينا يملك قصةً تُروى بصوتٍ واحد،

لكنّ هناك قصصًا لا يليق بها أن تُقال إلا بصوتين: صوت الوجع، وصوت الرحمة.

«تلك الملاك » ليست حكاية حبٍّ عادية، بل رحلة نيةٍ نقية بدأت من رسالة،

وعاشت على صبر، وكبرت تحت ظلّ الدعاء.

هي قصةُ رجلٍ حمل ألم ظهره كصليبٍ من التجربة، وامرأةٍ خبّأت وجهها وراء نقابها ونيّتها معًا،

وحين التقيا، لم يبحثا عن جسدٍ يُكمّل جسدًا، بل عن روحٍ تُكمل روحًا.

في زمنٍ يخلط بين القرب والخطيئة،

هذه الحكاية تُذكّرك أن هناك حبًّا لا يخاف الله منه، بل يقترب إليه أكثر.

الإهداء

إلى أمي وأبي،

الذين علّماني أن الطيبة لا تُشترى، بل تُورّث.

إلى إخوتي وأخواتي،

الذين ظلّوا ظلًّا جميلاً فوق أي تعب.

إلى أصدقائي الذين لم يخذلوني حين خذلتني الحياة.

إلى أطفالي الثلاثة،

محمود، وفاطمة الزهراء، ووئام،

أنتم سبب قيامي كل صباح، وأنتم الفجر الذي لا يُطفئه المساء.

وإلى صاحبة الظلّ المنير،

التي ظهرت في وقتٍ كانت العتمة تزداد،

فصارت نورًا لا يُرى بالعين، بل يُحَسّ بالقلب.

“ليست كلُّ الأبواب تُفتح بالمفاتيح؛ بعضها يُفتح بكلمة: السلام عليكم”.

كنّا ندرس أونلاين.

صوتٌ يشرح، شاشةٌ تقسم الوجوه مربعاتٍ صغيرة، وضوءٌ أزرق يتعب العين أكثر مما يعلّمها.

لا أحد يراها تمامًا، ولا أحد يراني تمامًا.

كنّا أسماءً في قائمة الحضور، ونبضًا يمرُّ بين سطرٍ وسطر.

هناك — في الصفّ الافتراضي — كانت سلمى: طالبةٌ هادئة، لا تُكثر الكلام، تدخل قبل الموعد بدقيقة، وتخرج بعده بثوانٍ، كأنها تعتذر للوقت إن أطالت الجلوس.

كنتُ متزوّجًا منذ تسع سنوات؛ زوجٌ يتعلّم أن يكون أبًا كلَّ يومٍ من جديد.

ثلاثةُ صغارٍ يملؤون البيت ضوءًا: سمّيتُهم كريم وليان ونديم؛ كي تبقى الحقيقة في مكانها.

كنت أعدّ الدروس على عجل، وأعدُّ الأدوية في صيدليتي الصغيرة على مهل.

الحياةُ مزيج: رزقٌ يسعى، ووجعٌ يهدأ حين ننساه، ومسافةٌ بينهما اسمها الدعاء.

“القلوبُ تتعرّفُ إلى القلوب قبل أن تتعرّف العيونُ إلى الوجوه.”

لم أتحدث مع سلمى يومًا.

كانت تكتب إجابةً قصيرة في الدردشة، فأعرف أن وراء الاختصار عقلًا لا يتباهى، وحياءً يكره الظهور.

انتهى الدبلوم كما تنتهي الفصول: درجةٌ علمية، ودرسٌ خفيّ في الأخلاق.

ثم مالت الحياة بنعمةٍ مُتعبة: انفصالٌ جاء بعد صمتٍ طويل؛

لا ضجيج، لا انتصار، فقط حكايةٌ وضعتْ نقطةً على سطرٍ لم يعد صالحًا للكتابة.

"بعضُ النهايات ليست خيانةً للنص، بل إنقاذٌ لما تبقّى من المعنى."

بعد ستة أشهر من الطلاق، حدث ما يُسمّيه الأطباء "حادثًا".

وأنا أسميه: اختبارًا ارتفع صوته على جسدي حتى سمعتُ قلبي بوضوح.

كُسر ظهري.

تعلّمتُ أن أقف ببطء، وأن أربط حذائي على مراحل، وأن أضحك مع أولادي كي لا يروا العصا وهي تجرح صورتي في عيونهم.

كنتُ أقول لنفسي: "سنعيش... حتى لو عشنا على مهل."

وأردد لهم كلَّ مساء: "ناموا، الباب مُغلق... وقلب الله مفتوح."

"الأبوّةُ أن تُخفي وجعك، كي لا يرثه الصغار."

مضت سبعة أشهر بعد الحادث.

وبينما أرتّب ملفات التدريب القديمة على الحاسوب، ظهر رقمٌ غريب:

“السلام عليكم... أنا من زملاء الدبلوم. اسمي ريم.

بلغني أنّ بينك وبين هالة أمورًا غير مكتملة.

إن شئتَ... أكون رسول خير.”

قرأتُ الرسالةَ مرتين.

لا صورة، لا حالة، لا شيء يدلُّ على وجهٍ خلف الكلمات.

لكن في السطر نبرةٌ تُشبه من يُطفئ الضوء برفقٍ كي لا يوقظ الوجع.

كتبتُ:

“وعليكم السلام. الخيرُ عند الله.

إن كان في يدكِ إصلاح... فتوكّلي.”

جاء الردّ سريعًا:

“الإصلاحُ يبدأ بسماعِ الطرفين... بلا حُكم.”

في المساء، أخبرتُ محمد الصيدلي — رفيق الدعابة التي لا تؤذي:

في رقمٍ جديد... قالت تبعث سلامًا بيني وبين الماضي.

ضحك وهو يهزُّ المظلّة عند الباب:

جميل... لكن السلام بين الماضي والحاضر مثل المصافحة بالهواء: لازم قلبك يكون حاضرًا.

قلبي حاضر... لكن رجلاي تتوكّآن على العصا.

أهمّ شي... لا تتوكّأ على الرسائل!

“الدوافعُ النقيّة لا ترفعُ صوتها؛ تعملُ في الظلّ وتعود.”

بدأت ريم تسأل عن التفاصيل: بهدوءٍ، بحذرٍ، بلا فضولٍ يجرح.

لم تُخبرني عن وجهها، ولم أسأل.

كنت أحتاج إلى أسلوب، لا إلى صورة.

قالت: “يا عبد... الكلماتُ حين تُنقّي النيّة، تصبح علاجًا.”

فهمتُ أنها تعرف شيئًا من طبّ الأرواح.

مرّت أيام.

تواصلتْ ريم مع هالة كما قالت، وأعادت إليّ بعض الأوراق المدرسية، وبعض الكلمات التي كان لابد أن تُقال ثم تمضي.

لم يحدث صلحٌ؛ لكن حدث سلامٌ:

سلامٌ مع الماضي، ومع نفسي، ومع فكرة أنّ الخسارة ليست فشلًا... بل فصلًا يجب أن يُغلَق.

“المسامحةُ لا تمحو الذاكرة؛ تُخرجُ السمَّ منها.”

في ليلةٍ تمشي على رؤوس أصابعها، كتبت ريم:

“آخرُ ملاحظة... لا تُحمّل قلبك ما لا يطيق.

غيّر ترتيب يومك قليلًا: الماء قبل القهوة، والضحكة قبل المسكّن.”

ابتسمت.

ليس لأن النصيحة جديدة، بل لأن الذي قالها يعرف طريقةَ الطرق.

قلتُ في نفسي: هذه اليدُ رتّبتْ فوضاي... وأغلقت البابَ بهدوء.

وفي دفترٍ صغير، على هامش الصفحة، كتبتُ ما يشبه الاعتراف:

“لم أرَ وجهها... لكنّي عرفتُها.

وما لا تراه العيون... تراه القلوب حين تتطهّر النيّة.”

“نلتقي أحيانًا لا لنتملّك... بل لننجو.”

سألتُها سؤالًا أخيرًا — خافتًا مثل ظلٍّ تحت المصباح:

“يا ريم... من أين تعلّمتِ هذا اللطف؟”

أجابت:

“من مهنةٍ تُلزمُني أن أمسك يدَ مريضةٍ لا أرى وجهها تمامًا... وأصدّق أن الطمأنينة تصل قبل الحقن.”

توقّفتُ عند الكلمة: مهنة.

وعند اليد: التي تُمسك ولا تُظهِر.

قلت: "بارك الله يدًا تعرف الجرعة."

قالت: "وبارك قلبًا يقبل الدواء."

أغلقتُ الهاتف، ومشيتُ في الصيدلية خطواتٍ أقلَّ وجعًا.

كان في صدري سؤالٌ لا يُقال، وإجابةٌ لا تحتاج نطقًا:

هل كانت "ريم"... هي "سلمى"؟

لا يهمّ الآن المهمّ أن النورَ يعرف طريقه... ولو جاء باسمٍ مُستعار.

"الأسماءُ قشور... النيّات لُباب."

وهكذا بدأت الحكاية:

دبلومٌ عبر الشبكة، زواجٌ يضع نقطةً بكرامة، حادثٌ يوقظ القلب من غيبوبته، ثم رسالةٌ تقول: أنا "ريم"... جئتُ أصلحُ لا أُفسد.

ولم تكن تعرف — ولم أكن أعلم — أنّ الذي يُصلح بين الناس... قد يصلح بعضَنا من حيث لا ندري

الفصل الثاني: أسماء على شاشة صغيرة

“بعض اللقاءات لا تبدأ من الصفر، بل من جرحٍ قديمٍ قال: كفى.”

كانت شاشة الهاتف كنافذة صغيرة تطل على حياةٍ بعيدة...

رقمٌ بلا صورة، واسمٌ يزداد حضورًا كلّما حاولتُ تجاهله: ريم.

لم تكن تكتب كثيرًا، لكنها كانت تكتب ما يبقى.

كلماتها قصيرة، لكنها تترك في صدري أثرًا طويلًا.

كنت أقول لنفسي: هي مجرد محاولة صلح... لا أكثر.

لكنّ الكلمات تعرف طريقها أفضل منّا، حين تكون صادقة.

في البداية، كانت الرسائل محدودة:

"كيف حالك؟"

"هل تحسّن ظهرك؟"

"هل احتاج الأطفال شيئًا؟"

أسئلة عادية... إلا أن ترتيبها لم يكن عاديًا.

كانت تعرف من أين يدخل الضوء، دون أن تفتح الستائر.

“الاهتمام الذي لا يطلب مقابلًا... علاج.”

أحيانًا كنت أفتح المحادثة فقط لأقرأ ما كتبته سابقًا،

لا لأردّ... بل لأتذكر كيف يكون الإنسان حين يُفهم دون شرح.

كنت أضحك من نفسي؛ رجل في الأربعين تقريبًا،

يقرأ سطرين من رقمٍ مجهول ويبتسم كالمراهقين.

لكن لا، لم تكن ابتسامة هوى... كانت ابتسامة نجاة.

في أحد الأيام كتبتُ لها بعد تردّد طويل:

"ريم، أحيانًا أشعر أني مجرد رقمٍ آخر عندك، مثل أي حالة تحتاج مساعدة."

جاء الرد بعد دقائق، بلا زينة، بلا تبرير:

"وأنا أراك حالة لا يمكن تركها دون متابعة."

ثم أضافت:

"لكن الفرق أنني حين أدعو لك... أشعر أنّ الدعاء يخصّني أنا."

توقفتُ طويلًا عند الجملة.

كأنها ألقت حجرًا في ماءٍ كنتُ أظنه ساكنًا.

"بعض الكلمات ليست جميلة، لكنها صادقة... والصدق أجمل من الجمال."

بدأتُ ألاحظ التفاصيل الصغيرة:

الوقت الذي تراسلني فيه لا يتغير، بين التاسعة والعاشرة مساءً.

نبرة كلماتها فيها حياءٌ ناعم... ليست متكلفة ولا متسيبة.

وحين أغيب يومًا أو يومين، تأتيني رسالة قصيرة جدًا:

"الغياب الطويل ليس من عادة الأقوياء."

كنت أضحك وأرد:

"بل هو من عادة الذين تعبوا من التوضيح."

فتكتب:

"والذين تعبوا من التوضيح... يحتاجون من يسمع لا من يسأل."

تلك الجملة لم تخرج من عقلٍ عابر...

بل من روحٍ عرفت ثقل التعب.

"أعمق الحوارات تبدأ بسؤالٍ بسيط: كيفك؟ وتنتهي بسكوتٍ مطمئن."

بدأت تُخبرني عن عملها دون تفاصيل كثيرة:

قالت إنها "قابلة منزلية" تساعد النساء في الولادة.

ضحكتُ يومها وقلت:

"جميل... إذن أنتِ تستقبلين الحياة كل يوم."

قالت: "نعم، وأودّ أن أذكّرك أن الحياة يمكن أن تولد من رحم الألم."

ثم أضافت بخفة ظلّها التي تشبه الدعاء:

"حتى أنت، ألم تُخلق من وجع؟"

قلت: "بل صرتُ وجعًا له ثلاث شهادات: طلاق، حادث، وصبر."

قالت: "إذن أنت مؤهل لتدريس مادة البقاء."

ضحكت، لكن قلبي لم يضحك.

لأن الجملة الأخيرة كانت أجمل مما أحتمل.

“الذين يسقطون كثيرًا... يعرفون كيف يُمسكون الآخرين حين يتعثّرون.”

ذات مساء، كتبت لي:

"اليوم رأيت طفلًا يشبه وصفك لابنك نديم."

قلت: "يعني مشيتِ وذكرتِنا؟"

قالت: "بعض الأرواح ترافقنا دون استئذان."

ثم صمتت.

وصمتّي معها لم يكن جمودًا، بل كان طمأنينة من نوعٍ نادر.

كنت أكتب لها أحيانًا دون أن أرسل الرسالة.

أكتب مثلاً: “أشعر أنك تعرفينني أكثر منّي.”

ثم أمسحها قبل أن تصل.

أخاف من أن أفسد لغةً نظيفة بكلمةٍ تائهة.

“العلاقة التي تخاف عليها من نفسك... هي الأصدق.”

بدأت تلمّح إلى شيءٍ لا تُفصح عنه.

تقول لي أحيانًا:

"أحيانًا الله يرسلنا لشفاء من لا نعرفهم."

وكنت أظنها تقصد نفسها كممرضة أو قابلة.

لكن شيئًا في قلبي قال: لا...

هي تتحدث عني، وعن نفسها أيضًا.

حتى جاء ذلك اليوم،

حين كتبتُ لها فجأة دون مقدمات:

"ريم... لو لم تكوني ريم، من تكونين؟"

ردّت بعد صمتٍ طويلٍ كأنها كانت تزن كل حرف:

"أنا ظلٌّ مرَّ من حياتك مرة، وترك على الجدار ضوءًا صغيرًا."

“الذين يأتون لإصلاح غيرهم، كثيرًا ما يُصلحون أنفسهم في الطريق.”

كنت أقرأ المحادثة القديمة بيننا كمن يراجع فصلاً من كتابٍ لم يُكمل قراءته.

بدأت ألاحظ أن بعض العبارات مألوفة...

أسلوبها، ترتيب الكلمات، طريقتها في كتابة التاء المربوطة بدل المفتوحة.

ذاكرتي تعود بي إلى أيام الدبلوم الأونلاين...

إلى تلك الطالبة الهادئة التي كانت تكتب الجواب قبل أن يسأل المدرّب.

سلمى.

الاسم خرج من قلبي قبل عقلي.

لكني لم أجرؤ على السؤال.

ربما لأني خفت أن يصدق حدسي.

وربما لأنّي كنتُ أريد أن تبقى ريم كما هي...

اسمٌ نظيفٌ لم يلوثه الواقع بعد.

مرت الأيام، وصارت "ريم" جزءًا من يومي،

كالماء الذي لا تشعر بعطشه حتى ينقطع.

كانت تبدأ يومها برسالةٍ تشبه الدعاء:

"صباحك سلامٌ يشبه أولادك."

وأختم يومي بردٍّ يشبه الشكر:

“ومساءك رحمةٌ تشبهك.”

“الاعتياد أخطر من الحبّ... لأننا لا نعرف متى بدأ، ولا نقدر متى ينتهي”

في إحدى الليالي، كتبتْ:

"أريد أن أقول لك شيئًا، لكني أخاف أن تغيّر رأيك بي."

قلت: "قوليه، أنا فقدتُ القدرة على الحكم منذ تعلّمتُ الرحمة."

كتبت بعد تردّدٍ طويل:

"أنا لست ريمًا."

توقف قلبي لحظة.

ثم أضافت:

"أنا سلمى... من الدبلوم"

سكتُّ.

الرسالة أمامي كالمرآة بعد الغبار.

الدهشة لا توصف، لكنها لم تكن غضبًا.

كانت شيئًا يشبه “الاعتراف النقي”.

قلت لها:

"ولماذا كل هذا التخفّي يا سلمى؟"

قالت:

"كنت أريد أن أساعدك... دون أن أخيفك، أو أُحرج نفسي.

كنت أظنّ أن الله أرسلني لترميم ما انكسر بينك وبين هالة...

لكنّي اكتشفتُ أن الله أرسلني لترميم ما انكسر فيك."

“أحيانًا نكون الجسر الذي يمرّ عليه الآخرون للنجاة... فنجد أنفسنا عبرنا معهم.”

لم أستطع الردّ.

كلّ ما فعلته أن أغلقتُ الهاتف، ووضعتُه على الطاولة،

وجلس قلبي يراجع كلّ لحظةٍ منذ أول رسالة.

كل جملة، كل دعاء، كل توقيتٍ متشابه.

كلها كانت “هي”.

سلمى... التي لم أرَ وجهها.

ولم أحتج أن أراه.

“ما يُرى بالقلب... لا تحتاج العين لتصدّقه.”

في الليلة نفسها، أرسلتُ لها آخر رسالة:

"سلمى...

لم أركِ يومًا، ولم ألمس يدك،

لكن الله يعلم كم من الطمأنينة خرجت منك ووصلت إليّ.

فشكراً لأنك كنتِ الدواء الذي لم يُكتب على وصفة."

ردّت بعد دقائق:

"وأنتَ المريض الوحيد الذي شفى قلبي... وهو لا يدري."

“الذين يُرسَلون إلينا صدفة... غالبًا هم الإجابة التي تأخّرنا عن الدعاء بها.”

الفصل الثالث: بيوت تُخفي الدعاء

“ليست المسافة بين الساحل والمدينة ما يفرّق الناس، بل بين من يسمعك... ومن يفهمك.”

حين اعترفت ريم بأنها سلمى، لم تتغير الأشياء كثيرًا حولي.

الغرفة هي الغرفة، الهاتف هو الهاتف، لكن قلبي تغيّر.

صار الكلام الذي كنت أقرؤه كلّ مساءٍ يكتسب وجهًا، وصار الصوت الذي لم أسمعه من قبل له ملامحُ من الهدوء والحياء.

كنت أظنّ أن المفاجأة ستُربكني، لكنها بالعكس... جعلتني أبتسم بصدق.

قلت لها:

"كنتِ قريبةً وأنا لا أدري."

فكتبت:

"وكنتَ بعيدًا وأنا أراكَ في كل التفاصيل."

ومنذ تلك اللحظة، صار بيننا شيء لا يُفسَّر.

كأننا نصفان من جملةٍ واحدة ضاعت في فوضى الحياة، ثم وجدت بعضها أخيرًا.

“حين يتشابه اثنان في الصدق، يصيران لغةً واحدة وإن اختلفت اللهجات.”

بدأنا نتحدث أكثر، لكن دون أن نتعدّى حدود الأدب والرحمة.

حديثنا لم يكن عن الغزل، بل عن الحياة نفسها.

عن الصبر، عن تربية الأبناء، عن الوحدَة، وعن الدعاء الذي يُقال في صمت.

كانت تخبرني عن بيتها الساحلي، عن رائحة البحر التي توقظها قبل الفجر،

وعن صغارها الأربعة: يزن، بلال، قيس، وساهر.

كلّهم قريبون من أعمار أولادي.

كنت أضحك وأقول:

"حتى أولادنا... يمشون على نفس التقويم!"

فتضحك وتردّ:

"ربما الله قسم لنا ذات الفصول."

"التشابه ليس صدفة، بل إشعارٌ من الله أنك لست وحدك في هذا العالم"

مع الوقت، صار كلّ ما أفعله يشبهها، وكلّ ما تفعله يشبهني.

ننام في نفس الوقت تقريبًا.

نشرب القهوة على ذات الإيقاع.

نكتب الأدعية ذاتها دون اتفاق.

حتى الرسائل المتبادلة أحيانًا تبدأ بالكلمة نفسها، وتنتهي بنفس النقطة.

فصرنا نضحك من غرابة هذا التكرار الجميل.

قالت لي مرةً:

"يمكن لأنّ أرواحنا تشرب من نفس النبع."

فقلت لها:

"أو لأنّ الله جعلنا مرآة لبعضنا، نرى في الآخر ما كنّا نبحث عنه في أنفسنا."

“حين يتطابق الإحساس، لا تحتاج أن تشرح... يكفي أن تنوي.”

ومن بين المزاح الذي صار لغةً ثالثة بيننا،

ظهرت جملتنا التي لم يفهمها أحد سوانا.

في كل مرة نتشابه فيها حدّ التطابق، كانت تضحك وتقول:

"اسأل أمك إن كانت مضيّعة بنت."

فأردّ بسرعة:

"اسألي أمك إن كانت مضيّعة ولد."

ثم نضحك معًا كأن الدنيا لا تعرف الحزن.

كانت تلك الجملة الصغيرة تختصر كل شيء:

دعابة القدر.

تشابه الروحين.

وطمأنينة اللقاء.

"كل علاقةٍ صادقةٍ تحتاج نكتةً صغيرة تحرسها من الجِدّ الزائد."

هي من الساحل، وأنا من مدينةٍ عادية بين الجبال.

لكننا اكتشفنا أننا نحمل ذات الطقس في القلب.

هي تحب المطر... وأنا أعيش تحت ظله.

هي تخاف من الفقد... وأنا أنتمي إليه.

هي تبدأ يومها بالدعاء... وأنا أنهي يومي به.

كأن البحر واليابسة أخيرًا تصالحا فينا.

قلتُ لها مرةً:

"أتعلمين؟ البحر يشبهكِ... هادئٌ من بعيد، لكن من يغوص يكتشف العمق."

قالت:

"وأنت تشبه الجبل... ساكنٌ في الظاهر، لكنه مليء بالحياة في الداخل."

"بعض الناس لا يلتقون في المكان، بل في المعنى."

بدأنا نشارك تفاصيل صغيرة لا تعني أحدًا سوانا.

أنا أُرسل صورةً لفنجان قهوة على مكتب الصيدلية، وهي تردّ بصورةٍ لكوب شاي على شرفتها المطلة على الشجر

أكتب لها:

"نفس اللون، نفس الوقت، نفس التعب."

فتردّ:

"يعني لازم نرفع بلاغ ضياع للأرواح المتشابهة!"

ثم تضيف الجملة التي صارت توقيعها:

"اسأل أمك إن كانت مضيّعة بنت."

فأضحك:

"أكيد، بس هي رح تسأل أمّك بالأول."

“العفوية بين اثنين أصدق من ألف وعدٍ رسمي.”

تكرّرت المواقف حتى صار التشابه بيننا مرعبًا وجميلًا في الوقت نفسه.

نقول الجملة نفسها في اللحظة ذاتها.

نرسل الرسالة في نفس الثانية.

نحلم بذات المعنى وإن اختلفت التفاصيل.

فصرنا نقولها صراحة:

"نحن واحد بكل شيء.

“حين تتوحّد الأرواح، تُصبح أنت في غيرك... وغيرك فيك.”

لكن مع كل هذا القرب، بقيت بيننا مسافةُ احترامٍ تُشبه الستار الأبيض في غرفة طبيبٍ رحيم.

لم نحاول أن نخلط القداسة بالعاطفة، ولا الطيبة بالتمادي.

كانت هي تعرف مكانها في قلبي، وأنا أعرف مكاني في دعائها.

كنا نتحدث عن أبنائنا أكثر مما نتحدث عن أنفسنا.

عن تعب الحياة، وكيف نصبر دون أن نكفر بالرحمة.

كأننا اثنان يذاكران في كتابٍ واحد، كلٌّ في مدينةٍ مختلفة.

“الأرواح الطيبة تعرف طريقها إلى الحلال، ولو عبرت مئة حاجزٍ من المسافة.”

ذات مساءٍ طويل، كتبت لي:

"تعرف، أنا أخاف من هذا التشابه."

قلت:

"لماذا؟"

قالت:

"لأنّ الشيء الذي يشبهنا تمامًا... قد يؤلمنا حين يغيب."

قلت:

"وأنا أؤمن أن الله لا يجمع اثنين على هذا النحو... ليعذبهما."

قالت:

"يعني ما نخاف؟"

قلت:

"بل نخاف، لكن نخاف من الله لا من القدر."

"كلُّ خوفٍ لا ينتهي إلى الله... خوفٌ زائد."

ومن يومها، صار بيننا اتفاق غير مكتوب:

أن نحافظ على هذا التشابه كنعمةٍ لا كقيد.

أن نضحك حين تتطابق أفكارنا، لا لنفسّرها.

أن نشكر الله على لقاءٍ لم يُخطّط له أحد، ولم يُفسده أحد.

وكنتُ كلما دعوت الله في سجودي، قلت:

"اللهم احفظ من جعلتَ بيني وبينها هذا الفهم الذي لا يُشرح."

"بعض اللقاءات ليست امتحانًا، بل جائزةٌ بعد الامتحان."

تقول سلمى دائمًا إنّ البيت الذي تُسمع فيه الأدعية ولا تُرى... بيتٌ مبارك.

ولأننا كنا ندعو لبعضنا دون أن نُخبر أحدًا،

سمّيتُ هذا الفصل:

بيوت تُخفي الدعاء.

“الذين يدعون لك في الخفاء... يُشبهون المطر، لا تراهم لكنهم يزرعون الحياة.”

الفصل الرابع: ضحكةُ الصيدلي... ودمعةُ المريض

“المسافة لا تُقاس بالكيلومترات، بل بعدد المرات التي يعود فيها القلبُ سليمًا من السفر.”

أنقرةُ في هذا الفصل بلا بحر، لكن فيها امرأةٌ من ماء.

تستيقظ سلمى على هواءٍ حادٍّ يشبه حدَّ المشرط، تُحضّر إبريق الشاي، وتُعلّق على مسمارٍ صغيرٍ قرب النافذة نقابًا أسود يلمع كأنَّه آية سترٍ متدلّية.

تقول لنفسها: المدينة الباردة تتدفأ ببيتٍ صغير، والبيتُ الصغير يتّسع بالدعاء.

أما بورصة—فهي مدينةٌ إذا هطل المطرُ عليها شمَّتْ رائحةَ البحر، وإذا سكت المطرُ سمع أهلُها وقعَ الأمواج في صدورهم.

أفتح الصيدلية مع أول خيط ضوء.

محمد يسبقني غالبًا، يضع الخبز الساخن على الكاونتر ويقول:

"صباح الخير يا عبد... جاهز لوصفة اليوم؟"

"وصفة اليوم دائمًا تبدأ بضحكتك."

"وضمادها برسالةٍ من أنقرة."

يغمز، فأبتسم. يعرفُ أنّ الرسائلَ دواءٌ غير مدوّنٍ على أي نشرةٍ داخلية.

الزبائن يدخلون واحدًا واحدًا؛

شيخٌ كبيرٌ يطلب شريط سكرٍ ويفتح قصّة عمر،

طالبةٌ تبحث عن مسكّنٍ "لا ينعّس" قبل امتحان،

وأمٌّ تسألني عن شراب سعالٍ لصغيرٍ عمره عشر سنوات—العمر ذاته لصغيرها الأول في أنقرة.

أكتب الجرعة بخطّ دقيق، وأهمس في سري: عشرة—ثمانية—ستة—ثلاثة... نفس السلالم، لكن البيوت مختلفة.

محمد يتكفّل بالنكات:

“يا جماعة، عندنا عرض اليوم: بخّاخ أنف مع دعاء خفيف... الدعاء مجانيّ بس مفعوله طويل!”

تضحكُ السيدة الكبيرة، ويضحك الهواء، وأضحكُ أنا لأنّ الصيدلية تحتاج إلى ضوءٍ لا يأتي من النيون وحده.

“بعض الأماكن تُشفى بالدواء، وبعضها تُشفى باللطف.”

عند الظهيرة، تهدأ الأرصفة، وتعلو همهمة المطر الرقيق.

أسرّح الرفوف كمن يرتّب أفكاره.

يصلني إشعارٌ واحد:

سلمى: “كيف حال صيدلية البحر؟”

أكتب: “تتقلّب على مدِّ زفيرك.”

تردّ بخفّةٍ ساحليةٍ لا تُرى أنقرةُ فيها: “اسأل أمّك إن كانت مضيّعة بنت.”

أضحكُ وحدي أمام درجِ المرهمات: "واسألي أمَّك إن كانت مضيّعة ولد."

هذه الجملةُ ـــ توقيعٌ سرّي، ضحكةُ روحٍ على مسافةِ ولايتين.

"الخفّةُ نعمة: أن تقول الكثيرَ بكلمتين، وأن تنجو من ثقلِ التفسير."

المساءُ في أنقرة يُشبه شايًا يُشرب على مهل.

أطفالُها الأربعة يلتفون حول دفتر الواجبات؛

صوتُ تسميعٍ خافت، وطبشورٌ ذهنيٌّ يكتب على الهواء: "يا رب."

تضغطُ على معصم مريضةٍ شابة وتقول: "النَّفَس... على مهل."

ثم تُرسل إليّ سطرًا لا يراه أحد:

سلمى: "المدينةُ بلا بحر... لكنّي ما زلت أغسل يومي بالماء."

أجيب: "والمدينةُ على بحر... لكنّي أصلّي كي لا أغرق."

تضع الهاتف، وتبتسم من وراء النقاب، كأنّ ابتسامتها رخصةُ عبورٍ بين مدينتين.

في بورصة، يدخل رجلٌ يحمل ابنته ذات الستِّ سنوات؛ حرارةٌ عالية وقلقٌ أعلى.

أقيس، أطمئن، أكتب جرعةً موزونة، وأركعُ عند مستوى العيون:

"راح تنامي اليوم بدري... بكرا بتصحّي مثل الورد."

يمسح الأب على رأسها ويقول: "الله يجعل كلامك دوا."

أردُّ: "الدعاءُ أسرعُ دواء."

من خلفي يمرُّ محمد ويتمتم: "وأرخص واحد."

نضحك.

هذه المشاهد الصغيرة لا تكتبُ رواياتٍ وحدها، لكنها تبقي الإنسان صالحًا للحياة.

وعلى هامش كلِّ وصفةٍ أكتبها، أكتب في قلبي: سلمى... هذه الجرعة لكِ أيضًا.

"ننجو حين نُشرك الآخرين في شفائنا."

بين أنقرة وبورصة خيطٌ غير مرئي: نحن نُشبه بعضنا في كل شيء.

تكتب هي دعاء المساء فأكتبه بعدها بدقيقة.

أضع أنا فاصلتي في نهاية جملة فتضع نقطةً في الموضع نفسه.

نختار نفس الكلمة لنفس المعنى دون اتفاق: سكون، رفق، ستر، طمأنينة.

حتى سلال الروتين تتشابه:

هي تُرتّب السماعة وميزان الضغط والمطهّر على طاولة خشبية،

وأنا أرتّب جهاز قياس الضغط، ودفتر الجرعات، وعلبةَ الكحول على سطحٍ من الخشب ذاته.

مرآتان في بيتين بعيدين، ينعكس فيهما ترتيبُ القلب.

ليلةُ مطرٍ أطول من المعتاد.

محمد يغلق الباب الخارجي ويجمع الفواتير.

ينظر إليّ نظرةَ طبيبٍ لمن يرفض أن يعترف بمرضه:

“يا عبد... شوف، الضحك شغلتي، بس الحقّ حق: انتبه لقلبك من (الاعتماد).”

“فاهم.”

“المسافة حلوة... لأنها بتخلّي النور نور.”

أومئ.

محمد رجلٌ يطعنُ بالنكتة ويخيطُ بالدعاء.

أخرجُ بعد الإغلاق؛ الطريق مبتلّ كجفنٍ بكَى وأغمض.

يمرُّ بجانبي باصٌ متّجهٌ إلى أنقرة.

أقف لحظةً بلا سببٍ واضح.

لا أصعد.

أكتفي بأن أقول: اللهمّ إن كتبتَ اللقاء فاجعله على الحلال، وإن كتبتَ البُعد فاجعله بلا فتن.

أُكملُ طريقي على مهل، والماءُ يتعلّمُ كيف لا يبلّل رجلًا يمشي بنيةٍ خفيفة.

"النوايا جسور: تعبر قبل الأقدام، وتصل قبل التذاكر."

في بيتها، تُسدّل الستارة.

تُطفئ القِدر، تُضيء السكينة.

ترسل: "كيف ظهرك اليوم؟"

أكتب: "المسكناتُ تُهَدّئ الوجع، وكلمتك تُهَدّئ الحياة."

ترسل وجهاً مبتسمًا يتلوه سطر: "اسأل أمّك.."

أُكمل تلقائيًّا: "... إن كانت مضيّعة بنت."

ثم نضحك—ضحكة قصيرة تحرسُ الحلال من زوائد العاطفة.

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث "الرسميّ":

الجرعات، النوم المبكّر، واجبات الصغار، وموقفٌ طريفٌ من أمٍّ سألتها عن ضغطٍ مرتفعٍ بسبب الملح والدقيقة الأخيرة من مسلسلٍ تركيّ.

تكتب: "أعطيتها وصفةَ خفضِ التوتر لا خفض الصوديوم"

أردّ: "وأنا وصفتُ لرجلٍ ملهوف جرعةَ انتظار قبل أي تحاليل."

نضحك.

نحن نطبّقان الوصفة ذاتها في مدينتين: رفقٌ زائد، ودواءٌ بالحدّ الأدنى.

أحيانًا يتلوَّنُ المساء بغيابٍ قصير—لا رسائل.

لا شيء يحدث سوى أن القلب يراجع الدروس:

لا تعلّق بلا شكر.

لا طلب بلا دعاء.

لا خطوة بلا ستر.

ثم يعود الخيطُ إلى التوهّج برسالةٍ واحدة:

"كنتِ بخير؟"

"كنتَ بدعائي."

ويكفي.

"الذِي يدعو لك في الخفاء، يمنحك نصيبًا من مطرٍ لا تعرف سحابتَه."

صوت المطر يضع فاصلةً طويلةً بين سطرٍ وسطر.

أفتحُ دفتري، أكتب فوق الصفحة البيضاء:

ضحكةُ الصيدلي... ودمعةُ المريض.

ثم تحتها بخطٍّ أصغر:

وما بينهما: رسالةٌ من أنقرة تجعلُ البحرَ في بورصة أقلَّ ملوحة.

أغلق الدفتر.

أُطفئ الضوء.

أقول قبل النوم:

"اللهمّ اجعل المسافةَ بيننا... مسافةَ أدبٍ لا مسافةَ بُعد."

وفي المدينة التي لا بحر فيها، تنام امرأةٌ من اللاذقية على رائحة ماءٍ محفوظٍ في ذاكرتها،

تضع يدها على صدرها وتقول: يا ربّ، كما علّمتنا التشابه، علّمنا الشكر.

وفي المدينة الساحلية، ينام رجلٌ من حلب وقد غسل صوته بصلاة الوتر،

ويبتسم لأنّ الضوءَ الذي يأتي من بعيد... ما عاد بعيدًا.

"نلتقي حين يُسمِعُنا اللهُ بعضنا... حتّى لو لم نرَ وجوهنا."

الفصل الخامس: امرأةٌ من وراء النقاب... ورجلٌ من وراء الألم

“ليس السترُ ما يحجبك عن الناس، بل ما يحفظ جمالك من أن يُستهلك.
وليس الصبرُ ما يُسكت الألم، بل ما يُعلّمك أن تتكلّم بصوتٍ أخفّ.”

في أنقرة، مدينةٌ بلا بحر، تعلّمت امرأةٌ من اللاذقية كيف تُربّي ماءها في الداخل.

تُعلّق نقابها الأسود قرب النافذة، تُسخّن إبريق الشاي، وتوزّع الصباح على أربعة صغار:

الأكبر يراجع قواعد العربيّة، تليه أختاً يُجادل في جدول الضرب، وثالثٌ يسأل عن معنى "السكينة"، وأصغرهم يطالب بكعكةٍ قبل الإفطار.

تبتسم وتقول: "السكينة... أن نأكل بنصف رغبتنا، ونحمد الله بكامل قلوبنا."

وأنا، في بورصة المطلة على بحرٍ يبدّد الصمت، أفتح الصيدلية بظهرٍ يتذكر الحديد حين يبرد في العظم.

محمد يسبقني غالبًا، يضع الخبز الساخن على الكاونتر ويقول:

"يا رجل، كلُّ أوجاع الظهر تُخفّها لقمةٌ من خبزٍ طريّ."

أضحك: "والباقي على المسكّنات."

يردّ وهو يغمز: "وعلى رسالةٍ من أنقرة."

بين أنقرة وبورصة خيطٌ لا تلتقطه الخرائط؛ هي مستترةٌ بثوب الستر، وأنا مستورٌ برداء الصبر.

هي لا تظهر لرجُل، وأنا لا أظهر لأحدٍ إلا مبتسمًا.

كلاهما نقابٌ من نوعٍ مختلف: نقابُ قماشٍ يحمي حياءها، ونقابُ صمتٍ يحفظ وجعي من الشكوى.

النهار هناك يبدأ بماءٍ مغليّ فوق شايٍ مُعتّق، وهنا يبدأ بأصوات رفوفٍ تصطفّ مثل جنودٍ على حدود التعب.

تصلني رسالةٌ قصيرة:

سلمى: "كيف ظهرُك اليوم؟"

أنا: "مستقيمٌ بقدر ما تسمح النيّة."

سلمى: "والنيّة؟"

أنا: "أن يكون الألمُ سرًّا بيني وبين الله."

تُجيب بسطرٍ يظلّ في أذني كآية:

"السترُ الحقيقي أن لا يَعلمَ بوجعك إلا مَن يشفيه."

أُغلق الهاتف وكأنّي أغلق باب غرفةٍ معقّمة.

في الصيدليّة يدخل رجلٌ يحمل ابنته ذات السنوات الست. حرارةٌ خفيفة وخوفٌ أعلى.

أقيس الحرارة وأطمئن: جرعةٌ موزونة وراحةُ ظَهرٍ من حمل القلق.

يشكرني ويقول: "الله يجعل كلامك دوا."

ألتفت لمحمد: "أحيانًا الكلامُ مسكّنٌ طويل المفعول."

يرفع حاجبيه: "إذا كان من قلبٍ طيّب."

في بيتها، تزورُها جارةٌ ثقيلة الظلّ، أمُّ دعاء.

تدخل بلا استئذانٍ كعادتها، تضع الكيس على الطاولة وتبدأ التحقيق:

"ليش مطوّلة ستارتك؟ شمس اليوم حلوة."

"الشمس حلوة... بس الحياء أحلى."

"وهاد رقم مين اللي بيضوّي كل مساء؟"

"رقم دعاء."

تضحك وتغمز: "دعاء الدعاء؟ ولا دعاء واحد تاني؟"

تضع سلمى يدًا على صدرها وتردّ بلطفٍ حازم: "يا خالتي، البيت اللي فيه ستر... ما بيوسّع لظنّ."

تتنحنح أمُّ دعاء، تشرب الشاي وتنسحب بخفةٍ مصطنعة، تاركةً وراءها رائحةَ فضولٍ لا يزول بالمطهّر.

تتصل دعاء بعد الظهر، صوتها نعناع:

"اصبري عليّها... الفضول أحيانًا طريقةُ الناس لقول: نحنا منحبّك."

"وأنا بحبّهم... بس أحبّ قلبي مستورًا."

"قلوب المنقّبات كبار... بس بيوجعون أكثر."

تضحك سلمى: "وأحيانًا يُشفين أكثر."

في بورصة، المطرُ يلمس زجاج الصيدلية ويعود، كزائرٍ مؤدّب.

أجلسُ بين رفّين: واحدٌ للأدوية، وآخر للأدعية.

تضيء الشاشة:

سلمى: "اليوم أعطيتُ مريضةً وصفةَ سكينة:

نومٌ مبكر، وذكرٌ كثير، وماءٌ على مهل."

أنا: "وأنا وصفتُ لرجلٍ عجولٍ جرعةَ انتظار:

لا قرار قبل صلاة."

سلمى: "نشتغل في خطّين متوازيين."

أنا: "نلتقي في المعنى."

ثم تضيف دعابتنا التي لا يفهمها أحد:

سلمى: "اسأل أمّك إن كانت مضيّعة بنت."

أنا: "واسألي أمَّك إن كانت مضيّعة ولد."

نضحك.

الضحكُ سترٌ آخر؛ يغطّي الجدّ حتى لا يتصلّب، ويُخفّف الحبّ حتى لا يُثقل.

هي امرأةٌ من وراء النقاب، لكنّي أعرفُ ملامحها من ترتيب كلماتها؛

تضع الفاصلة حيث أضعها، تختار المفردة التي أختارها، تنهي الرسالة عند المدى الذي ينتهي فيه نفسي.

وأنا رجلٌ من وراء الألم، لكنها تَعرف قامتي من طريقة صبري؛

حين أقول "الحمد لله" تعرف إن كنتُ أقف على عكّازٍ من صمتٍ أو على عصا من نكتة.

"حين يتطابق الإحساس، تُصبح التفاصيلُ عبارةً واحدة تُكتب بقلمين."

تروي لي مساءً:

"اليوم جاءتني شابّةٌ تحملُ خجلًا أثقلَ من حقيبتها... لا تريد شيئًا إلا من يسمع نبض خوفها.

قِستُ الضغطَ والسكّر، ثم قستُ عليها لطفًا زائدًا.

الوجعُ الذي لا اسم له... علاجُه أن يُسمّى 'رحمة' أولًا."

أروي لها بدوري:

"دخل شيخٌ كبير يسأل عن دواءٍ يردّ له توازنَ الليل.

قلت له: جرب أن تغيّر السريرَ إلى القبلة، وأن تترك هاتفك بعيدًا عن قلبك.

مرّ عصرٌ وعاد: 'نمتُ مثل طفلٍ بعد بكائه الأوّل.'

قلت في نفسي: بعضُ الأدوية سجدة.”

“الناس لا تبحث عن دواءٍ فقط... بل عن بشرٍ يذكّرونهم أنّ الله أقرب من رفّ المسكّنات.”

في أنقرة، تُطفئ النوافذ، تُضيء الستر.

أطفالُها الأربعة يغلبهم النعاس.

تقف في الممرّ كحارسِ نور.

تضع يدًا على يدِ صغيرها تقول: “نام، الله يحرس الأحلام.”

تغلق باب الغرفة، تجلس إلى الطاولة، تفتح دفترًا صغيرًا وتكتب فوق الصفحة البيضاء:

“النقابُ ليس حائطًا، بل ظلّ شجرة.”

في بورصة، أعود إلى البيت بعد إغلاق الصيدلية، أعلّق معطفي على مسمارٍ وحيد، وأفتح نافذتي على رائحة الملح.

الأمواجُ هنا ليست عاليةً، لكنها وافية.

أُخرج دفترًا يشبه دفترها، وأكتب:

“الألمُ ليس سوطًا، بل معلّمُ وقفة.”

“السترُ يحميك من الناس... والصبرُ يحمي الناس منك حين تتألم.”

ليالٍ قليلة تمضي بلا رسائل؛ ليس خصامًا، بل تمرينُ نفسٍ على أن يحبَّ دون أن يطالب.

أُمسك الهاتفَ ثم أضعه.

هي تفعلُ الشيءَ نفسه في مدينةٍ أبعد.

ثم تأتي رسالةٌ واحدة تكفي:

سلمى: "كنتُ عند الله باسْمك."

أنا: "وكنتِ في سجودٍ لا يعرفه أحد."

"الذين يدعون لك سرًّا... يجعلونك تمشي أخفَّ من ظلك."

تحدثني عن البحر الغائب:

"في اللاذقية، كان الموجُ يشرح الدرسَ بصوت عالٍ،

في أنقرة أسمعُ صوته من ذاكرتي."

أحدّثها عن البحر الحاضر:

"في بورصة، الموجُ منخفض،

لكنني أراه كلّما لمعت علبةُ دواءٍ على الرفّ—كأنّ الحياةَ تقول: هذا المدُّ للروح."

ثم نصمتُ قليلًا؛

الصمتُ أحيانًا أكثرُ أدبًا من الكلام.

في الغد، تصلني صورةٌ لدفترها: هامشٌ كتبت فيه بخطٍّ مُعتدل:

"السترُ شفاء، والكلمةُ الطيّبة علاج."

أعيد الصورة إلى قلبي كما تُعادُ الوصفة إلى درجها الصحيح.

أرسل لها بدوري صورةً لقصاصةٍ قديمة:

"لا تؤجّل شكرَك حتى تضمن البقاء."

تضعُ الصورة في ملفٍّ اسمُه—كما أخبرتني لاحقًا—"أقواس".

"كلُّ جملةٍ صادقة قوسُ رحمةٍ فوق يومٍ ثقيل."

في إحدى الأمسيات، قال محمد وهو يجمع الفواتير:

"يا عبد... إنت من وراء الألم صرت تشوف الناس صح. حافظ على هالنعمة، لا تخلي الحزن يسرقها."

"كيف؟"

"لا تكثر الحكي عن الوجع... خليه يعلّمك، مو يعرّفك."

"وماذا عنها؟"

"هي من وراء النقاب... عم تعلّمك كيف يُخفى الجميل لكي لا يُستهلك.

إذا اجتمع سترُها وصبرُك... يصير الطريق للـ(حلال) أقصر مما تتوقّع.”

هززتُ رأسي وأنا أبتسم: “وأنت شاهدٌ يا محمد.”

قال: “شاهدٌ يضحك... ويبكي إن لزم.”

قبل النوم، أكتب لها:

“السترُ الذي تحرسين به وجهك... علّمني كيف أحرس قلبي.

والصبرُ الذي أحرس به ظهري... علّمكِ كيف يُحمل حنانٌ أثقلُ من البحر.”

تجيب:

“نتشابهُ حتى في حُرّاسنا.”

ثم تُرسل خيط ضحكة:

“اسأل أمّك...”

أردّ تلقائيًّا:

“... إن كانت مضيّعة بنت.”

وتنام المدنُ على طرفي الخيط،

مدينةٌ بلا بحرٍ تحتفظ بماء امرأة،

ومدينةٌ على بحرٍ يتعلّم فيها رجلٌ كيف لا يغرق وهو يبتسم.

"ليس اللقاء أن نرى الوجوه، بل أن نُشفى ونحن بعيدون."

"هناك كلماتٌ لا تُقال لأنها طاهرة، وصمتٌ لا يُفهم لأنه مليء بالدعاء."

لم نكن نتحدث كثيرًا.

لكنّ كل مرة نتحدث فيها، كنا نصمت بعدها طويلًا.

كأن الكلام بيننا له ضريبة، ندفعها من أعمارنا.

كانت "سلمى" تعرف متى تتكلم، ومتى تسكت، ومتى تكتفي بإرسال رمزٍ صغيرٍ يحمل من المعنى أكثر من رسالةٍ كاملة.

كنت أقرأ ما بين السطور، لا ما فوقها.

أقرأ "مساء الخير" فأسمع خلفها تنهيدة تعب، وأردّ "ونِعْمَ المساء" كمن يضع يدًا على كتفٍ بعيد.

"القرب الحقيقي ليس من يسألك كثيرًا، بل من يعرف متى يكتفي بأنك بخير."

في بورصة، كان محمد الصيدلي لا يملّ من محاولاته لتحويلي إلى رجلٍ طبيعي.

يقول لي دائمًا وهو يصفّ الأدوية:

"عبد، والله قصتك مع أنقرة صارت تشبه مسلسل تركي، بس ناقصها موسيقى حزينة."

"هي مش قصة حب، يا محمد."

"وأنا قلت حب؟ قلت دفء... بس أنت كل ما تتدفّى، بتخاف تحترق."

كنت أضحك، لكنه كان محقًا.

كنتُ أعيش في منطقةٍ رمادية: لا هي حب، ولا هي صداقة، ولا هي برود.

هي شيء أنقى، لكنه أيضًا أخطر.

شيء لو نطقتُ باسمه، فسد.

فسمّيته "ستر القلب".

في أنقرة، كانت "سلمى" تكتب لي في المساء:

"اليوم خفت من نفسي"

فأكتب: "من ماذا؟"

تردّ: "من أن أعتاد وجودك كما يعتاد المريض على الدواء."

قلت: "والدواء إذا استُعمل باعتدال، يُبقي المريض حيًا."

قالت: "لكن الإفراط في الشفاء... مرضٌ آخر."

"أحيانًا الخوف ليس من الفقد، بل من التعلّق بغير الله فيما نحب."

كانت "أم دعاء" تزورها أكثر من اللازم.

النساء يعرفن الأشياء قبل أن تُقال، ويفهمن الصمت إذا طال.

قالت لها يومًا وهي ترتشف القهوة:

“سلمى... عيونك تغيرت.”

“كيف يعني؟”

“صارت مطمئنة أكثر... مين دعا لك؟”

ابتسمت وقالت:

“رجلٌ لا يعرف وجهي.”

كادت “أم دعاء” تختنق من المفاجأة.

ضحكت سلمى وقالت:

“قلت لك رجل، ما قلت لك حُب.”

ردت بفضولٍ لا يُخفي الدهشة:

“بس كل حكايةٍ بتبدأ بالدعاء... بتنتهي بالامتحان.”

قالت سلمى بهدوء:

“وكل امتحانٍ فيه نجاةٌ مكتوبة لأحدٍ ما.”

في الليل، بعد أن يغلق محمد الصيدلية ويذهب، أبقى وحيدًا.

أفتح الدرج، أجد ورقة صغيرة بخطه كتبها ساخرًا:

“تذكير: المريض الحقيقي هو اللي ما يعترف أنه محتاج علاج.”

أبتسم، ثم أكتب تحتها:

“وأحيانًا الدواء يكون اسمًا على شاشةٍ صغيرة.”

“الذين نراهم في قلوبنا لا يحتاجون إلى مقعدٍ بجانبنا.”

كنا نتحدث كثيرًا عن “الحدود”.

عن كيف تبقى العلاقة نقية مهما اقتربت الأرواح.

قلت لها مرةً:

“أخاف أن نحيد عن نيتنا.”

قالت:

“النية التي نراجعها كل يوم... لا تنحرف.”

ثم أضافت:

“لكن راقب قلبك، فالقلوب أحيانًا تتسلّل من نواياها.”

قلت:

“وأنتِ؟”

قالت:

“أنا أراجع نفسي قبل الدعاء، لا بعده.”

“الصدق لا يمنع الخطأ، لكنه يُبقي الخطأ بلا ندم.”

في المساء أرسلت لي رسالة طويلة، نادرة:

“عبد... هناك أشياء لا تُقال لأنها لا تحتمل التفسير.

أنا لا أراك رجلًا عابرًا، ولا أخًا فقط، ولا صديقًا فقط...

أراك راحةً بعيدةً عن الشبهات، قريبةً من الله.

ولهذا أخاف أن يختبرني الله بك.”

وقفتُ أمام الرسالة طويلاً.

لم أستطع الردّ إلا بسطرٍ واحد:

“وأنا أخاف أن أُقصّر في الدعاء فأفقدك.”

صمتنا بعدها يومين كاملين.

لم يكن جفاءً... بل عبادة.

محمد قال لي في اليوم الثالث وهو يراني شارداً:

“وين وصلت أنقرة؟”

“وصلت لله.”

قال:

“يعني انتهت القصة؟”

قلت:“القصة التي تصل لله لا تنتهي.”

فصمت، ثم قال بابتسامته التي تشبه الدعاء:

“يا عبد... خليك دايمًا تحكي معاها باللهجة دي. الله يسمع أحلى من الشبكة.”

في الليلة ذاتها، أرسلت لي سلمى:

“كنت في صلاةٍ طويلة... ودعوت أن يبقى بيننا الستر كما هو.

أن لا يُغوينا الحنين، ولا يسرقنا الفضول.”

فأجبتها:

“آمين... وإن خرج الكلام عن طهره، فليكتمه الله في صدورنا حتى نصبح جاهزين لفهمه.”

“الحلال ليس بابًا صغيرًا كما يظن الناس، بل طريقٌ واسعٌ يبدأ بنيّة.”

في نهاية كل يوم، كنت أقول في سري:

“اللهم احمِ هذا الكلام من أن يصبح حبًّا، واحفظه كما حفظتَ يوسف من امرأة العزيز؛

كلمةً صافيةً في زمنٍ ملوث.”

أما هي، فكانت تكتب في دفترها:

“اللهم لا تبتليني بعبدٍ أحببتُ صدقه، وخشيتُ أن أفسد صدقي بحبّملو

“بعضُ المشاعر لا تُقال لأنها خُطّت بالحبر الذي لا يكتب إلا لله.”

وهكذا، ظللنا نكتب ونصمت،

نضحك ونخاف،

نتشابه ونبتعد،

نُكمل حوارًا واحدًا بألف طريقة... دون أن نقول جملةً واحدة اسمها "أحبّك".

لكنّ الله كان يسمعها بين السطور.

الفصل السابع: حين يختبر الله النيات

“النيات تُختبر في اللحظة التي نسيء فيها الفهم، لا في اللحظة التي نُحسن فيها الظن.”

ذلك المساء كان عاديًا جدًا...

بورصة تمطر بخجل، والبحر صامت كأنه يصغي للدعاء.

في أنقرة، كانت سلمى ترتّب كتب أولادها، وترسل لي رسالة بسيطة:

"عبد، انتبه... الحنين أحيانًا يضعفنا، والله يختبر القلوب حين تتعلّق."

قرأت الرسالة وأنا متعب، صدري ضيّق، واليوم ثقيل.

تردّدت، ثم قرأتُها مرّة ثانية... وثالثة.

لم أسمع الدعاء فيها، بل سمعت الفقد.

ظننتها رسالة انسحاب مهذّبة.

أغلقتُ الهاتف، وتركتها هناك، خلف شاشةٍ لا تفهم سوء الظن.

“أكثر الذين يُوجِعوننا لا يقصدون... نحن فقط نقرأ قلوبنا في كلماتهم.”

ثلاثة أيام مرّت بلا كلمة.

الصيدلية باردة، وضحكة محمد فقدت نغمتها.

قال لي في اليوم الثاني:

“عبد، السكوت دواء ولا مرض؟”

“سكوتي علاج من جرعةٍ زائدة.”

قال:

“طيب والمريضة؟”

“ما بعرف إذا كانت هي المريضة... ولا أنا.”

ضحك، ثم قال بهدوء:

“المشكلة مو بالحب، المشكلة باللي يخاف يعترف فيه كأنه ذنب.”

في أنقرة، كانت “أم دعاء” تزور سلمى كعادتها وقت العصر.

نظرت إليها طويلًا وقالت:

“فيه وجع في عيونك مو مثل قبل.”

“لا وجع، بس صمت.”

“الصمت عند النسوان إمّا حياء... وإما حيرة.”

سكتت سلمى ثم قالت:

“يمكن تأدّب قلبي زيادة.”

ضحكت أم دعاء وقالت:

“يعني لسه القلب حيّ، بس عامل حاله شيخ.”

فابتسمت وقالت:

“شيخ بس حافظ النية.”

في اليوم الثالث، جلست أمام البحر.

رفعت بصري وقلت بهمسٍ يشبه الاعتراف:

"يا رب، إن كانت نيتي طاهرة فاحفظها من الشك، وإن كانت مشوشة، فطهّرها بالبعد."

ثم فتحت الهاتف.

ولا رسالة.

لكنني شعرت بشيء غريب في صدري...

كأنها دعت لي الآن.

“القلوب تعرف طريقها ولو تاهت الكلمات.”

في صباح اليوم الرابع، وجدت رسالة قصيرة جدًا.

جاءت كأنها بلّغتني صلاةً فاتتني:

سلمى: “كنت أدعو لك، ما كنت أبتعد.”

وقفت أمامها طويلاً...

ثلاث كلمات أطفأت ثلاثة أيامٍ من النار.

أرسلتُ بعدها سطرًا واحدًا فقط:

"وأنا كنت أراجع نيّتي، ما كنت أعاتبك."

لم تردّ.

لكنني شعرت أنّها ابتسمت في مكانٍ بعيد.

كأنّ الله سمع اعتذارين خرجا من قلبين في اللحظة نفسها.

"حين تُختبر النية، الصادق لا يفوز بالكلام، بل بالصمت."

في المساء، أرسلَت لي صورةً للسماء بعد المطر في أنقرة، مكتوبًا عليها بخطّها:

"اختبار الله للنيات... نعمة، مش عقوبة."

كتبتُ تحتها:

"الحمد لله أننا نجحنا بدون أن نكذب."

فردّت:

"نجحنا لأننا خفنا من الله أكثر مما خفنا أن نخسر بعضنا."

"بعض الصمت جواب، وبعض الغياب قربٌ لا يُفسَّر."

مرّت الليلة هادئة، خالية من التبرير.

كأنّ الله قال لكلٍّ منّا: "اطمئن، النيّة وصلت."

لم نعتذر، لم نناقش، لم نفسّر...

لكن كلّ شيء عاد إلى مكانه.

أهدأ، أنقى، وأقرب إلى الطهر.

“الذين يُحبّونك لله... لا يخذلونك بالظنّ.”

الفصل الثامن: بحبّك... لكن بطُهر

“أثقلُ كلمةٍ في القلب هي تلك التي طال صمتُها حتى صارت دعاء.”

مرّ يومان بعد صفاء النيّات كنسمةٍ تُمرَّر على جبهةٍ مُحمّى.

لا اعتذارات، لا تبريرات، فقط سكينة تمشي الهوينى بين بورصة وأنقرة، كأن خطًّا رفيعًا من نورٍ يمدّ جسراً فوق المدن والظنون.

في الصباحات، كنتُ أفتح الصيدلية باكرًا، وأُعِدُّ القهوة على مهلٍ غير معهود، وأتذكّر كيف علّمتني الرسائل أن أسمع نفسي دون ضجيج. وفي أنقرة، كانت سلمى ترتّب دفاتر الصغار، وتعلّق على الحائط ورقة بخطّها:

"الطمأنينة قرارٌ يُراجع كلّ مساء."

لم نكتب كثيرًا، لكننا كنّا هناك: نُشير لبعضنا بالصمت، ونحرس النيّة كأنها رضيعٌ في ساعة النوم.

المساء الثالث كان مختلفًا.

بورصة تمطر مطرًا دافئًا يلمع على الإسفلت مثل سبحةٍ انفرطت حباتها.

أنقرة باردةٌ كعادتها، لكن نافذتها الصغيرة تُشبه عينًا تسهر.

فتحتُ الهاتف، كتبتُ:

"سلمى، أحتاج صوتك الليلة... لا حرفًا."

تأخّر الردّ دقيقةً بدت أطول من المسافة بيننا، ثم ظهر سطرٌ واحد:

“صوتي لك... لكن لله أوّلًا.”

ضغطتُ زرّ الاتصال.

رنّ الهاتف ثلاثَ مرات.

في الرنّة الرابعة، جاءني السلام كما يأتي الأذان لفجرٍ متأخّر:

السلام عليكم.

وعليكم السلام ورحمة الله.

كان صوتها منخفضًا، فيه انحناءةُ دعاء. لا موسيقى، لا ضحك، فقط تلك النبرة التي تعلّمتُ أن أميّز فيها تعب اليوم حين يهدأ على وسادة الرضا.

كيف قلبك الليلة؟

أجرب أن أكون شاكرًا أكثر من كوني مشتاقًا.

وهذا أصعب أنواع الحبّ.

وأصدقها.

ساد صمتٌ جميل.

ذلك الصمت الذي لا يطالبك بأن تملأه، لأنه ممتلئٌ بما يكفي.

قلتُ وأنا أتحسّس الكلمات كمن يمسك كأسًا من زجاجٍ رقيق:

سلمى...

نعم.

علّمتِني أن أنظر إلى وجعي كأنّه مريضٌ يحتاج رحمة لا شفقة. وعلّمتِني أن الدعاء طبٌّ للقلوب إذا ضاعت نشراتُ الدواء...

توقّفتُ.

تنفّستُ.

ثم خرجت الجملة التي انتظرتها حروفي ستة فصولٍ وبضعة مواسم مطر:

بحبّك.

لم تكن صرخةً، ولا همسًا. كانت جملةً تقف على قدميها وتسلّم على الله أولًا.

على الطرف الآخر من السلك، سمعتُ شهقةً صغيرة، كأن قلبًا سقط من على رفّ الخوف، ثم التقطه الستر بيدٍ خفيّة.

طال الصمت... ثم جاء ردّها ببطءٍ لا يُشبه التردّد، بل يُشبه السجود:

وأنا... بحبّك.

توقّفت لحظةً، ثم أكملت:

بس بحُبٍّ يُرضي الله، ما يُغضبه. بحبّك طاهر، عليه حراسة الدعاء، وحدود النيّة.

أغلقتُ عينيّ.

لم أردّ فورًا، لأن الشكر احتاج مساحةً ليتّسع.

في تلك اللحظة فهمتُ: أن أجمل الاعترافات ما كان شاهدُها الله.

عبد...

نعم يا سلمى.

نحنا متشابهان على نحوٍ يخيفني ويطمئنني معًا: نحبّ ونكره ذات الأشياء، نفسُنا واحد، ودعاؤنا واحد... أخاف أن يغرّنا هذا التشابه فنظنّه قدرًا لا يُراجع.

والخوف نعمة إذا حفظ الحدود.

ولهذا أضع كلامي بين قوسين: بحُبٍّ يُرضي الله.

وأنا أوقّع تحت هذا القوس.

سكتت قليلًا ثم ضحكت ضحكةً قصيرةً خجولة:

بتتذكّر جملتنا؟ "اسأل أمك إن كانت مضيّعة بنت."

وأنا جاوبتك: "واسألي أمك إن كانت مضيّعة ولد."

اليوم، أسأل الله... هل كتب لنا أن نجد بعضنا بلا أن نُضيّع أنفسنا؟

ونسأله أن يجعل وجودنا لبعضنا سببًا في طاعته، لا اختبارًا لقلوبنا.

المكالمة صارت مجلسَ نية.

هي تحدّثني عن روزنامة بيتها: أربع صلواتٍ تقام على عيونٍ أربعة؛ أكبرهم يراجع حفظه، والثاني يتعلّم أن ينتظر دوره، والثالث يضحك من دون سبب واضح، وأصغرهم يطلب أمّه كأنه يملك مفاتيح قلبها.

وأنا أحكي عن صغاري الذين صاروا كبارًا بسرعةٍ لم أستأذن بها الزمن؛ عن واجباتٍ تُكتب على طاولةٍ تهتزّ، وحقائبَ مدرسيةٍ تصل قبل الرواتب بيوم.

أعمارُ صغاري تشبه أعمار صغارك، كأن الله رتّب دواوين اليوم لئلّا نختلف على مواعيد الرحمة.

وحتى لا نعتذر يومًا إن تأخّر الردّ؛ لأن طفلًا قال: "ماما" أو "بابا".

تمامًا...

أريد لحبّنا أن يكون مثل هذا: ينهض إذا بكى صغير، ويسكت إذا جاء وقت صلاة، ولا يغار من فنجان شايٍ يُهدئ أمًّا متعبة.

ثم صارت تُحدّثني عن البحر.

عن لاذقيةٍ تسكن ذاكرتها كطوقٍ أزرق حول عنق طفولةٍ بعيدة، وكيف أن أنقرة بلا بحر، لكنها تعلّمت أن تسمع للمطر صوت الموج.

ضحكتُ وأنا أنظر من شرفة بورصة إلى الخطّ الداكن على الأفق:

أنا أسمع البحر حقيقةً، وأنتِ تسمعينه خيالًا... ومع ذلك، الموجة ذاتها تصل قلوبنا.

إذا وصل الدعاء... وصل كل شيء.

دخل محمد الصيدلي على الخطّ من حيث لا يدري، حين دقّ باب الصيدلية بخفةٍ كعادته وهو عائدٌ ليلاً ليطمئن:

لسّا صاحي؟

أغلقتُ الميكروفون لحظةً، وقلت:

إي، بس عندي مكالمة مهمّة.

غمز وهو يلوّح بكيس خبزٍ ساخن:

إذا كانت المكالمة للسماء... خذ وقتك. وإذا لأنقرة... كمان خذ وقتك، بس لا تنسَ تقول "إن شاء الله" وسط كل كلمة.

ضحكتُ، أعدتُ فتح الميكروفون:

سلمى... محمد يوزّع خبزًا على الكلام.

أُحبّ الخبز الصامت... يُطعم دون أن يشرح نفسه.

وأنا أحبّ الدعاء... يبرّد الكلمة حتى لا تحرق اليد التي تحملها

قلت لها:

بحبّك يعني: أؤمّن لكِ مكانًا آمنًا في قلبي لا يزوره إلا الله.

بحبّك يعني: إذا اشتدّ عليّ الحنين، وضعتُه في يدي كسبحة، وعددتُه حتى يهدأ.

بحبّك يعني: إذا شرحتِ لي تعبك، لم أبحث عن بطولة، بل عن سببٍ لأقول لكِ "سُترةٌ فوق سُترة".

سكتُّ، ثم تابعت:

وبحبّك يعني: حين يجيء وقت الحلال... أجيء.

ردّت بصوتٍ فيه رجفةُ قبولٍ لا رجفةُ دهشة:

وأنا... بحبّك يعني: أضع اسمك في الدعاء قبل نوم الصغار، وأستحي أن أُسمّي مشاعري أكثر ممّا يُرضي الله.

بحبّك يعني: أُشبهك لأننا متشابهان، لكنني لا أُقلّك... بل أحرسك.

وبحبّك يعني: إذا تأخرتَ في الردّ، عرفتُ أن صغيرًا عندك قد بكى... فهدّأني هذا أكثر من ألف رسالة.

طالت المكالمة، لكنّها لم تثقل.

كنا نضع حُبّنا على الطاولة بيننا مثل وردةٍ لها أشواك، ونُديرها ببطءٍ كي لا يجرحَنا الجمال.

ثم جاءت لحظةٌ مشتركة لا يتّفق عليها البشر، يكتبها الله حين يشاء:

قلتُ أنا:

اللهم اجعل هذا الحُبّ عبادةً لا عادة.

وقالت هي:

اللهم اجعله سكينةً لا فتنة.

وقلنا معًا:

آمين.

عبد... هل نحتاج أن نُغيّر شيئًا بعد هذه الكلمة؟

نحتاج فقط أن نحافظ على ما قبلها: الستر، والحدود، والنية.

وإذا زلّ اللسان؟

يعود إلى ماء الوضوء.

وإذا اشتدّ الشوق؟

نُكثر السجود.

وإذا طال الطريق؟

نُقصّر الأمل، ونُطوّل الدعاء.

وأما إذا جاء الحلال؟

نقول: توكّلنا على الله، ثم نمشي بخطى المطمئنين.

قبل أن نختم، مرّت تلك المزحة التي صارت شعارًا سريًّا بيننا، لكنّها هذه المرّة خرجت بثوبٍ جديد:

اسألي أمّك إن كانت مضيّعة بنت.

ضحكت وقالت:

واسأل أمّك إن كانت مضيّعة ولد.

ثم أضافت بخجلٍ رائع:

وإذا لم يكونا ضيّعانا... فلا نضيّع نحن معنى النعمة بإهمالها.

ضحكنا قليلًا؛ الضحك هنا ليس زينةً للمشهد، بل دليل صحة.

فالحبّ الذي لا يضحك... مريض.

حان الختام.

بورصة تضع رأسها على كتف البحر، وأنقرة تُحكم شال الليل حول كتفيها.

قلتُ:

سأُغلق الخط... لكنني سأُبقي الدعاء مفتوحًا.

قالت:

وسأترك النافذة مواربةً... ليدخل منها سلامك إذا مرّ.

تصبحين على رحمةٍ مقسومة لكِ.

وتصبح على سلامٍ محفوظ.

أغلقتُ المكالمة وبقي الهاتفُ دافئًا في يدي.

خرجتُ إلى الشرفة.

المطر خفيفٌ تلاه بخارٌ رقيقٌ يصعد من الإسفلت كأن الأرض تتنفّس.

وضعتُ كفّي على صدري، وشعرت أن شيئًا عاد إلى مكانه: الكلمة التي لم تكن تريد أن تُقال إلّا إذا صارت طاعة.

في مفكّرتي كتبتُ:

"بحبّك... لا بوصفِك ملاذًا من العالم، بل طريقًا إلى الله في العالم."

وهي كتبتْ على هامش دفترها:

"بحبّك... لا لأمتلكك، بل لأمتلك نفسي ساعة الاختبار."

ثم تقاسمنا، عن بُعد، وردًا قصيرًا:

آيةً واحدةً، ودعاءً واحدًا، وابتسامةً تُرى بالقلب.

"ليس كلُّ من أحبّ أخطأ. بعضُ الحبِّ فِقهُ قلبٍ أحسن التوبة قبل أن يزلّ، وأحسن الشكر قبل أن يُعطى."

الفصل التاسع: أقواس الرحمة

"الحبّ الذي لا يُربكك، يُربّيك."

مرّت أسابيع بعد تلك الليلة التي قُلنا فيها الكلمة الأثقل على اللسان، والأخفّ على القلب:

بحبّك... لكن بطُهر.

ومنذها تغيّر كل شيء.

لم نَعُد نكتب كثيرًا، ولم نحتج أن نُذكّر بعضنا بوجودنا.

صار الحضور بيننا عادة قلبية، مثل التنفّس: لا يُفكّر فيه الإنسان، لكنه يعيش به.

في بورصة، كنتُ أفتح الصيدلية في السابعة صباحًا، والبحر أمامي يُلقي سلامه الأزرق من بعيد.

يبدأ النهار برائحة البنّ، وصوت المآذن يتعانق مع ضحكة عمال النظافة في الشارع.

أُحضّر الدواء وأرتّب الرفوف، وأتذكّرها كلما أمسكت قنينة مهدّئٍ مكتوبٍ عليها:

"للاستخدام عند القلق الشديد."

فأبتسم وأقول في نفسي:

"وللقلوب... الدعاء عند الشوق الشديد."

محمد الصيدلي صار يحترم صمتي.

لم يعُد يمازحني عن "أنقرة"، بل صار يقول كل صباح:

ادعُ لها قبل ما تبدأ الشغل، يمكن دعاؤك أسرع من البريد التركي.

وأنا أردّ مبتسمًا:

هي تدعو لي قبل ما أفيق أصلاً، وكلانا نلتقي عند الباب نفسه... باب السماء.

في أنقرة، كانت سلمى تستيقظ قبل أطفالها بساعة، تعدّ الفطور، وتضع لكلّ واحدٍ منهم لقمةً فيها دعاء.

كانت تكتب في دفترها كل فجر:

"اللهم اجعلنا من الذين يُحبّون فيك، لا لشيءٍ في الدنيا، بل لأنهم يجدون في الحبّ طريقًا إليك."

ثم ترفع رأسها، وتقول:

عبد الآن يشرب قهوته.

وكأن المسافة بين بورصة وأنقرة لم تكن إلا خيط دعاءٍ مشدودٍ بين كوبين.

"القلب الذي عرف الطُهر، لا يُريد إلا الرحمة بعدها."

صارت رسائلنا مختلفة:

لا مواعيد، لا عتاب، لا شوقٍ مُرهق.

بل أحاديث قصيرة، تشبه سطور الأذكار:

أنا: أذّن الفجر عندي.

هي: أقم الصلاة عندي.

أنا: مرّ اليوم بخير.

هي: لأننا بدأناه بدعاء.

هي: اليوم أُرهقت، لكني لم أشتكِ.

أنا: التعب الذي نُخفيه عن الناس، يُخفّفه الله.

في أحد الأيام، كتبتُ لها:

تعرفين يا سلمى، زمان كنتُ أظنّ أن الرحمة تُعطى للضعفاء، حتى عرفتُك.

الرحمة هي أعلى درجات القوة. أن تكون قادرًا على الغياب، وتختار البقاء.

أن تكون قادرًا على الغضب، وتختار الدعاء.

فردّت برسالة قصيرة جدًا:

"ولهذا أراك قوّتي التي لا تجرح."

كانت تحدثني عن يومها في أنقرة، بين ضجيج الباصات وصوت الصغار، تقول:

أحيانًا أحكي لك وأنا أخلط العدس بالرز، فتخرج جملتي برائحة الطبخ والحنين معًا.

وأنا أقرأها وكأنها سورةُ حياة.

كلّنا نطبخ ما تبقّى من يومنا لنُطعِم الغد قليلًا من الصبر

كنت أسمع ضحكتها من خلال النصّ، وأعرف أن أحد أطفالها جذب ثوبها من الخلف.

وأنا أقول:

ما أجمل أن يشبه طفلك طفلي، ولو في البعد.

الرحمة بيننا لم تكن مجرد شعور، بل أسلوب حياة.

كانت تُذكّرني:

عبد، انتبه، لا تجعل الحنين يُضعفك عن الدعاء.

وأنا أذكّرها:

وسلمي قلبك من الحسابات، فالله لا يظلم نيةً صادقة.

"الحبّ الذي لا يُبكيك، بل يُصلّبك، هو الحبّ الذي رُسم تحت قوس الرحمة."

ذات مساء، بعد يومٍ طويل، كنت أعود من الصيدلية متعبًا، أجرّ قدميّ على الأرصفة التي تشبهني.

وصلت البيت، جلست على الكرسي، فتحت الهاتف بلا قصد،

وجدت منها رسالة قصيرة جدًا:

"هل دعوت اليوم لمن أحببت؟"

ابتسمت، وكتبتُ:

"نعم، قبل أن أذكُر نفسي."

ردّت بعدها بلحظة:

"وهذه هي أقواس الرحمة التي نحتمي بها."

مرّت الأيام هادئة.

لم نعُد نتحدث عن اللقاء ولا المستقبل،

بل عن اليوم الذي نُرضي فيه الله أكثر من أمس.

كأن حبّنا تحوّل إلى جدول ماءٍ يسقي حياتنا بصمت، لا يحتاج إلى تصفيق، فقط إلى استمرار.

هي تذكّرني بالصلاة، وأنا أذكّرها بالراحة.

هي تدعو لي عند المرضى، وأنا أدعو لها عند المرض.

كأنّنا توزّعنا على خريطة الدعاء لئلا يُصاب العالم بنقصٍ في الرحمة.

"ليس بيننا عهد، لكن بيننا وعدٌ مع الله ألا نؤذي بعضنا بالظنّ."

في إحدى الليالي، كتبت لي:

عبد، اليوم سمعت امرأةً تقول لصديقتها: (لا يوجد حبّ طاهر في هذا الزمن).

ابتسمتُ وقلت في نفسي: (لكننا الدليل أنه ما زال يوجد).

قلت لها:

الحبّ الطاهر لا يُرى في الصور، يُرى في أثره على السلوك.

في لُطفك مع الناس، وفي صبرك على أولادك، وفي قلبٍ يسكنه الدعاء لا الطلب.

فكتبت بخطٍّ صغير:

"أحبّك أكثر حين تُذكّرني بمن أحبّ."

في صباحٍ آخر، بينما كنتُ أرتّب الرفوف، وصلني صوتها على التسجيل الصوتي الأول منذ أسابيع:

كانت تهمس:

"عبد، إنّ من أحبّ في الله لا يُفكّر كيف ينتهي، بل كيف يظلّ نقيًا حتى النهاية."

وأكملت:

"دعنا نبقى تحت أقواس الرحمة... حتى يكتب الله لنا ظلّ الحلال."

توقّفتُ عن كل شيءٍ لحظة، شعرت أن الدنيا تهدأ على كتفي.

المرضى في الخارج ينتظرون، ومحمد يناديني، لكني كنتُ في مكانٍ آخر. مكانٍ يسمّى الطمأنينة.

في دفتر ملاحظاتي كتبت في تلك الليلة:

“يا رب، إن كنتَ قد جمعتَ بين قلبين بغير لقاء، فاجعل دعاءهما لقاءً كلّ يوم.”

وفي صفحةٍ موازيةٍ من دفترها كتبت هي:

“يا رب، احفظ هذا الحبّ من الزلل كما حفظتَ مريم من الظنّ.”

وهكذا، لم نكن نعيش قصة حبّ،

بل كنّا نعيش مدرسة حبّ،

تُدرّسنا كيف يكون القلب نقيًا في زمنٍ غبش،

وكيف تكون العلاقة بين رجلٍ وامرأةٍ على بعد مدينتين

أقرب من كلّ الأزواج الذين يسكنون بيتًا واحدًا.

"في كلّ حبٍّ صادق، هناك قوسُ رحمةٍ يُظلّل القلب حتى لا يحترق."

الفصل العاشر: تحت ظلّ الدعاء

"كلّ نهايةٍ حقيقية هي بدايةٌ تختبئ خلف كلمة: آمين."

مرّ عامٌ تقريبًا منذ تلك المكالمة التي قال فيها كلٌّ منّا "بحبّك" على طريقته.

عامٌ لم يكن هادئًا بالكامل، لكنّه كان عادلًا.

امتحانات صغيرة، أوجاع جسدية، تعب العمل، فواتير، صمت طويل...

ومع ذلك، لم نغِب عن بعضنا يومًا.

كُنّا نظلّ تحت ظلّ الدعاء، نلتقي حيث لا تصل الرسائل، ولا تُخطئ النوايا.

في بورصة، كان البحر ما يزال يُذكّرني بها كل مساء.

المدينة تتلوّن بلون فنجان قهوتها،

والصيدلية صارت أكثر سكونًا، كأنها مكان عبادة لا عمل.

محمد الصيدلي صار يمازحني كل يوم:

عبد، لولا حبك لله قبلها، كنتَ صرت شاعرًا من الدرجة الأولى.

فأرد عليه بابتسامةٍ تعبّر عن امتنانٍ أعمق مما يفهم:

الله يكتبها لي لا عليّ، هذا كل ما أرجوه.

وفي أنقرة، كانت سلمى تتابع حياتها بين أمٍّ وأختٍ ومعلّمة،

لكن شيئًا في صوتها تغيّر... صار أكثر حنانًا، أقل خوفًا.

قالت لي مرةً في تسجيلٍ صوتي:

عبد، لما أدعو لك، أحسّ أني أُدافع عن نفسي من الدنيا.

كأنّ حبك درعٌ خفيف... لكنه لا يُكسر.

أجبتها:

وأنا حين أسمعك، أعرف أن الله لم ينسَ أن يطمئنني، فقط غيّر الوسيلة.

"بعض الناس لا يُعطَون لنا ليبقوا، بل ليُذكّرونا أن الله يسمعنا عندما طلبنا الطمأنينة."

لم نتحدث عن "متى سنلتقي؟"

كنا نعرف أن اللقاء ليس موعدًا... اللقاء رزق.

وكلما اقتربت الخطوة، كبر الخوف من أن يُفسدها الاستعجال.

ذات ليلة، قالت لي سلمى:

عبد، لو كتب الله أن يكون لنا بيت، أريد أن يكون في مدينةٍ يسمع فيها البحر الأذان.

قلت:

بورصة تكفي. فيها الموج والسماء، وفيها ذكرى كل انتظار.

قالت:

والحنين؟

قلت:

يُترك خارج الباب، مثل الغُبار قبل الصلاة.

ضحكت، وقالت:

إذن سيكون بيتنا نظيفًا دائمًا.

مرت شهورٌ كثيرةٌ على هذا الحوار،

لكن كلماته لم تبهت.

صرنا نُهيّئ أنفسنا لخطوةٍ تليق بهذا النقاء،

ببطءٍ يشبه خشوع من يتهيّأ للسجود.

في نهاية العام، أرسلت لي رسالةً قصيرة جدًا، خُطّت بخطّها الهادئ المائل قليلًا نحو اليمين:

“عبد، لو تأخّرتَ في الدعاء، سأدعو بدلًا عنك.

ولو نسيتَني، فاذكر الله... وسأكون هناك.”

وقفتُ أمامها طويلًا.

ثم كتبت:

"سلمى، لو انتهت الدنيا فجأة، يكفيني أن الله كتب لي أن ألتقيك قبلها،
تحت ظلّ الدعاء."

"ما بين بورصة وأنقرة، طريقٌ من النور لا تمشيه الأقدام... بل النيّات."

وهكذا انتهى الجزء الأول من الحكاية...

ليس بنقطة، بل بـ سجدة شكر.

سجدةٍ على حبٍّ لم يُخالف الله، ولم يتحدّاه،

حبٍّ كان صادقًا بما يكفي ليبقى حيًّا حتى في البُعد.

الناس يحبّون ليُكمِلوا النقص فيهم،

أمّا نحن فأحببنا لنتذكّر أن الله هو الكمال.

"تحت ظلّ الدعاء، لا يوجد وداعٌ... بل انتظارٌ كريم"

الخاتمة الأدبية

“لم يكن اللقاء معجزة، كانت المعجزة أن يبقى القلب طاهرًا رغم الحب.”

حين تنتهي هذه الصفحات، لا تنتهي القصة.

لأن الدعاء لا يعرف كلمة "انتهى".

عبدٌ في بورصة وامرأةٌ في أنقرة،

كلاهما يرفع كفّه كل مساء،

ويقول للسماء نفس الكلمة: احفظنا يا الله من أنفسنا.

هذه الحكاية ليست عن حبٍّ مستحيل،

بل عن حبٍّ قرّر أن يكون ممكنًا... بطُهر.

وأعد القارئ بأن القادم أجمل،

فما تحت ظلّ الدعاء سيولد من جديد —

في الجزء الثاني: حين يصير الدعاء وعدًا.

اقتباسات الرواية (مختارات من الفصول العشرة)

"الذين نراهم في قلوبنا لا يحتاجون إلى مقعدٍ بجانبنا."

"النيات لا تُختبر بالكلمات، بل بالصمت الذي لا يقطع الدعاء."

"الحلال ليس بابًا صغيرًا كما يظن الناس، بل طريقٌ واسعٌ يبدأ بنيّة."

"الرحمة هي أعلى درجات القوة: أن تكون قادرًا على الغياب وتختار البقاء."

"الحبّ الذي لا يُربكك، يُربّيك."

"ليس كلّ من أحبّ أخطأ، بعضُ الحبِّ عبادة."

"القلب الذي عرف الطهر لا يطلب إلّا الرحمة بعدها."

"تحت ظلّ الدعاء، لا يوجد وداع... بل انتظار كريم"

"ما بين بورصة وأنقرة طريقٌ من النور لا تمشيه الأقدام... بل النيّات."

"لم يكن اللقاء معجزة، كانت المعجزة أن يبقى القلب طاهرًا رغم الحب."